

النظام العاملي في رواية " زمن النمرود" للحبيب السائح

د. عبد العالي بشير
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب
والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد
- تلمسان -

الملخص:

سعت في هذا المقال إلى دراسة الشخصيات

في رواية "زمن النمرود" للكاتب الجزائري الحبيب السائح، وفق معايير جديدة وقواعد نظرية محددة وأدوات إجرائية دقيقة، وقد استعنت بمقاربة "فيليب هامون" في دراسة عنصر الشخصية.

مقدمة منهجية:

أصبحت الشخصية تدرس وفق معايير جديدة، وتحلل على أسس النموذج الوظيفي الذي يحكم بنية النص، وصار تحديد ما يتم من خلال الموقع الذي تحتله في النص والأعمال التي تقوم بها والأدوار التي تؤديها.

تأسس على ما سبق سوف أتجاوز في هذه الدراسة المناهج القائمة على التحليل الاجتماعي والنفسي، والتي ركزت كل اهتمامها على دراسة الموضوعات والكشف عن الخلفيات الإيديولوجية والنفسية، لأدرس الشخصية انطلاقا من أفق جديد وقواعد نظرية محددة وأدوات إجرائية دقيقة. وقد اعتمدت في دراسة عنصر الشخصية على مقاربة "فيليب هامون" لاعتبارين أساسيين:

أولهما: كونها خلاصة لجميع البحوث البنوية والسميائية التي تطرقت إلى هذا العنصر بالدرس والتحليل.

ثانيهما: لما وفرت من وسائل إجرائية وخطوات منهجية دقيقة.

وقبل الشروع في تطبيق هذه المقاربة على رواية "زمن النمرود" سنعمل على تجلية المبادئ التي اعتمد عليها ف. هامون أثناء دراسته لعنصر الشخصية.

■ فالشخصية في نظره ليست مقولة أدبية، وليست معطى جماليا مؤسس سلفا.

■ حدد الشخصية من منطلقات لسانية بحثية، إذ يعتبرها علامة تتقاطع في أمور كثيرة مع العلامة اللسانية- كوغها دالا وملولولا- وبالتالي فإنه ينطبق عليها ما ينطبق على هذه الأخيرة.

■ درس الشخصية من منظور مغاير تماما للممارسات الكلاسيكية التي كانت تركز أساسا على مرتكرات خارجة عن الأطر النصية، وسعى إلى إبراز وظيفتها وطريقة بنائها، ورصد طبيعة العلاقات التي تعمل على تجلية مدلولها.

■ ولما كان لكل نص طبيعته الخاصة به، وقراءة محددة تتحكم في تركيبه ووحدته ونظامه، فإنه من الصعب تحديد حقل سيميولوجي خاص ولغة واصفة للشخصية.

■ ضبط مستويات محددة أثناء تحليله للشخصية يمكن حصرها على النحو الآتي:

- أنواع الشخصيات.

- مدلول الشخصية.

- البطاقة الدلالية للشخصية.

بقي أن نشير إلى أن وسائل التحليل التي اعتمدناها في هذه الدراسة للتواضعة ما هي إلا وسائل إجرائية وجهت قرأتنا وساعدتنا في تحليل عنصر الشخصية.

تناول الكاتب في روايته شذرات من التاريخ اليومي لفترة الانتخابات البلدية بمدينة "سعيدة"، وما سبقها من تربص ودسائس، وما رافقها من صراع ومناورات وما ترتب عنها من ضحايا، وما أورثته من أحقاد.

وقد تنوعت الشخصية في رواية "زمن النمرود" وتعددت أدوارها، ومع ذلك فإنه يمكن تصنيفها إلى فئتين متناحرتين، فهناك من جهة ذرية النمرود [فئة المقاومين] ويمثلهم "أمين وهارون" من جيل الاستقلال، و"المانكو والمسهودي والمعلم" من جيل الثورة، ويحمل كل واحد منهم آثار الثورة في جسده، ولم يستفد أحدا منهم من ثمار الاستقلال. ومن جهة ثانية هناك ذرية الذئاب [فئة الإتهازيين]، "كعون الله والحريوي ويزيد وأم الشيخ" وكلهم مسؤولون حزيون وحكوميون، يدعون المساهمة في الثورة والحقيقة خلاف ذلك.

وتعيش الفئتان في صراع دائم، ولا تكف الفئة الثانية عن تدبير المكائد للفئة الأولى، استغلال الطرق الشرعية وغير الشرعية لعرقة مسيرها. وسنركز في هذه المرحلة على دراسة أنواع الشخصيات وفق التقسيم الذي اقترحه "ف. هامون"، والتي تنوزع على النحو الآتي:

□ الشخصية المرجعية: *Personnage Referentiel* وهي التي تحيل على معنى جاهر وثابت تفرضه ثقافة ما، بحيث أن مقروئيتها تظل دائما مقترنة بدرجة مشاركة القارئ في تلك الثقافة. ومن هنا يمكن القول أن الشخصية المرجعية تحيل على واقع خارج نصي يفرزه سياق اجتماعي معين.¹

إن القارئ يلحظ بسهولة أن النص يتضمن بعض الشخصيات التاريخية، ويمكن أن نفهم هذا التضمين على أنه مسخر في سبيل التأكيد على التقاطعات التي تلقي فيها الشخصيات المرجعية والشخصيات النصية، وبهدف استمرار تأثيرها وفاعليتها في الحاضر. وتنوعت الشخصيات التاريخية بين الشخصية السياسية والفكرية والدينية والعسكرية.

ومن بين هذه الشخصيات نذكر على سبيل المثال "ماركس" فهاته الشخصية تقاطعت في النص الروائي مع شخصية "أمين" الذي كان متأثرا بأفكار هذا الأخير وسعى إلى بلورتها بشكل يتوافق مع واقع وقيم بلاده. >> درست كثيرا حول الإشتراكية والرأسمالية والصراع الطبقي. الكتب والنظريات وحدها لا تكفي، اقتنعت أن واقع بلادك يختلف >> ص 163. وتقاطعت شخصية "ابن باديس" مع شخصية "المعلم" كاتب القسمة، ويتجلى هذا التقاطع في الملفوظات السردية الآتية:

>> أنا قراعتي كانت بسيطة وقليلة حفظت ما تيسر من القرآن الكريم وأنا صغير >> ص 82.

>> هذه صح ما يؤمن لابل والامراط والوعلقو الزردة عنده بدعة... باديسي >> ص 82.

كما وظف الكاتب في نصه بعض الشخصيات السياسية والعسكرية، ونعني بها تلك الشخصيات التي أدت أدوارا سياسية وعسكرية على امتداد التاريخ مارسته واشتهرت به، ومازالت تمارسه من خلال شخصيات وطنية أقدر وأحق. ووضح من هنا الكلام أن النص قد سخر الشخصيات المرجعية في سبيل الكشف عن القيم الدلالية التي تحكم إلى العلاقات البنائية بين العناصر. ويجسد قيم هذه الفئة "عون الله ويزيد والحريري" وهي شخصيات تتلاقى في النص الروائي مع شخصية "النمرود" الذي يعد استنادا إلى المرجعية التاريخية أول جبار في الأرض، وهنا يقودنا للقول بأن عنوان الرواية يلتقي تبريره من خلال الإسقاطات التاريخية التي يتماهى فيها زمن النمرود مع الزمن الراهن من حيث القيم التي يفرزها "عون الله ويزيد والحريري" من جهة و"النمرود" من جهة أخرى. ومن الواضح أن النمرود يصنع فعله السياسي بهدف بسط نفوذه الإستبدادي المجسد في محورين: واحد أفقي نلمس إفرازاته في تسيير شؤون الرعية تسييرا يرتقن في وجوده إلى البطش، وواحد أفقي مسخر في اتجاه الذات الإلهية. إن قيمة الإستبداد التي يرمز إليها النمرود بقيت ثابتة على امتداد التاريخ ونلقى أثرها الواضح على الرعية. كما تقاطعت هذه الشخصيات مع شخصية الجنرال "يجار" الذي إشتهر بتعذيب المجاهدين، وإذا اقتفينا أثر هذه الشخصيات في النص الروائي فإننا نلاحظ أنها تحيلنا على عالم دلالي مشترك [استغلال النفوذ - الظلم - الإضطهاد - سلب حقوق الأبرياء] وكل من يحاول الوقوف في طريقها يكون مصيره إما العزل أو الطرد أو السجن، نلمس كل ذلك في الملفوظات السردية الآتية:

>> نلس سعيده، في تاريخهما عرفت الظلم مثل ظلمك، لا ربما عرفوا ظلم الكولون ظلم
بيجار << ص 65.

>> تنسى وجوه عمال أمرت بطردهم من عملهم وحرمت أولادهم وعائلاتهم من خبزة
الحلال << ص 62.

>> أغلقوا الطريق في وجه ذرية النمرود داخل حزبنا نظفوا المنظمات الجماهيرية منهم << ص 65

>> قلت لك العرب السيطرة تلزم معهم، من أين دخلت لهم الحرية... العرب ما ينفع معهم سوى
السطو << ص 73.

ويصنف ضمن هذه الزمرة رجال الدرك وفي مقلمتهم "الشاف" الذي جسد الظلم ومارس العنف
على هارون أثناء قيادته إلى مركز الدرك بسبب المقال الذي نشره في جريدة الجمهورية واتهم فيه منسق القسمة
بالعجز والعرقلة، والبلدية بالمماطلة والتسويق في حل مشاكل المواطنين، فأناء استجوابه شتمه "الشاف" وصفعه.

- اسكت يا فرخ

- تأدب يا سي "الشاف" بواي شهيد واما عفيفة

- وتكلم. ص 154.

>> ايه يا هارون. ها أنت تصفع، تذكر المانكو هو الآخر صفعه. المخاط طار من منخارك
أمسحه. ماذا تفعل؟ تقوم وتدافع عن نفسك. دركيان من ورائك و"الشاف" أمامك. نهايتك إن حاولت تعرفها
المحاكمة ثم السجن. ماذا تفعل << ص 154. وتتخذ كلتا الشخصيتين [السياسية والأمنية] نفس السبيل لقمع
المناضلين الشرفاء وتمارسه على مستويين، المعنوي [الطرد من العمل، العزل من الحزب] أو الحسي [السجن]، وقد
ترتب عن هذه الوضعية الانفجار الذي نلمسه في نهاية الرواية.

□ الشخصيات المجازية: *Personnage Allegorique* تتميز كل شخصية في أي نص
روائي بصفات وملامح جسدية ومعنوية يستطيع القارئ اكتشاف الصفات الأولى بسهولة، لأن السارد يعتمد
فيها على التصوير الخارجي القائم على الملاحظة. أما الصفات المعنوية فإنه لا يتسنى للقارئ اكتشافها إلا من خلال
أفعالها وأقوالها، وفي هذه الحالة تقوم الشخصية بإنجاز أفعال أو التعبير عن رغبة، أو التظاهر بأمر ما وهي تبطن أمرا
آخر، ويترتب عن كل ذلك انبثاق الشخصية وعلامتها. 2

ومن الشخصيات المجازية الموظفة في النص، شخصية المناضل المزيّف "عون الله" الذي كان يتظاهر في الاجتماعات والمهرجانات بأنه مناضل ثوري يؤمن بالإشتراكية ويحترم الشهداء، ولكن سلوكه وتصرفاته يشنان عكس ذلك، ومن هنا تلقى التضارب الموجود بين ظاهر الشخصية وكيوتها.

تكذب وتقول: << تحيا الإشتراكية، وفي نفسك تلغنها وتلعن المؤمنين بها. تقول الرئيس قال: وأنت تحرف كلامه... تقول جبهة التحرير كنا وكنا، وأنت مغلق أبوابها تحارب وتطارد مناضليها الصحاح. تقول في التجمعات: الجحد والخلود للشهداء. وأنت تأكل كل يوم حقوق أولادهم وتلوس قبورهم. ص 65

وقد استغل هؤلاء الإتهازيون مناصبهم سواء تلك التي تعتمد على المحدثات القانون [لا يخفى لشباب مناضل أن يتقلد منصب مسؤولية إذا لم يكن منخرطاً في الحرب] أو على المحسوسات [المال والثروة]. << بللأل أنا باق، بلجأ أنا باق، بالقوة أنا باق >> ص 179. << أنا علي بللأل والوعد وأتم عليكم بتجديد مسؤوليتي في القسمة >> ص 141.

وأمام هذا الوضع المتناقض حاول المناضلون الحقيقيون تغيير الواقع بقوانينه وقيمه الزائفة، ولكنهم اصطدموا بممثلة هذا الواقع الذين سخرُوا كل الإمكانيات من أجل تحطيمهم ليصبحوا في نهاية المطاف مجالا للسخرة والتهكم. << أمين الحكومة سيستخرج صباح اليوم من الحبس. ولد نقابي طر، ماركس جديد >> ص 208.

هجمالة أخرى في اليوم التالي قالت:

<< وأنت يا يمينية... قل عليك الرجال؟؟ رحمت طلبت ذاك الكلب >> ص 107.

<< الليلة ستكون طويلة عليك، المهم أنت تحمل قلما وكناشة في جييك "الشاف" لم ينفطن. أكتب "لبروكة" شعرا، حكاية أنت لم تكن شاعرا ولا حاكيا، ولكن الحزن يولد الشعر والغبن يسقيه >> ص 158.

□ الشخصيات الإشارية: *Personnage Embrayeur* وهي دليل يشير إلى حضور المؤلف أو القارئ في النص، وتتخذ الشخصية الإشارية قيمتها المرجعية بالعودة إلى الفضاء المكاني والزمني الذي ترد فيه، والسياق اللساني هو الذي يسمح بتأويلها. 3 وقد عمدنا في هذا الجانب إلى تتبع الإشارات Les Indices التي تحيل على تدخل المؤلف أو القارئ في المتن الروائي، فتمكنا من حصر أشكال كثيرة تعكس هذا الحضور وسنعمل على إظهارها بالتحليل من خلال بعض النماذج. يعتبر السارد وسيطا بين المؤلف والرواية، وهو الذي يضطلع بوظيفة السرد أو الحكّي ويقوم بنقل عالم المؤلف بأمانة، فهو إن صح التعبير نائب عنه ومكلف بالحضور. وقد سمحت لنا قراءتنا للمتن الروائي من معرفة الوضعية التي اتخذها السارد في النص الروائي والصورة التي ظهر عليها. وفي كلتا الحالتين يبدو السارد حاضرا في النص *Narrateur Homodietique* سواء بوصفه ملاحظا شاهدا عالما بكل ما يجري في العالم الروائي كـ "عوج الفم" مثلا، أو كشخصية ساردة يشخصها ضمير

النحوي [أنا] وهو ما يسميه " جزار جنات " *Narrateur Autodictique*. بمعنى أنه يمثل حضورا كبيرا في النص. 4.

وما دام السارد شخصية نائية عن المؤلف، فإن هذا الأخير لا يتردد من أن يسند إليها بعض العلامات أو الإشارات التي تظهر حضوره الفعلي في النص، ويمكن حصر هذه الدلائل في الآتي:

■ التعليقات: وهذه التقنية تكشف عن وجهة نظر المؤلف وموقفه من بعض القضايا، إذ يتدخل لنصح الشخصية البطل/أو الساردة على ترك أفكارها وهجر مبادئها، لأن الواقع ميؤوس من إصلاحه، ومحاولة الوقوف ضده مضيعة للوقت وتظهر تدخلات المؤلف المضمنة في خطاب السارد هيمنته المباشرة على العالم الروائي، وعلمه بظواهر الأمور وخفاياها. فنجلده مثلا يعلق على حالة "أمين" قائلا: <<أمين الحكوميس... قلت له مرة. كان منسق كل الحكوميس. هذا النظام تسانده، يستعملك في النهاية يرميك نفاية>> ص 208.

■ الوصف: نشير إلى أننا لا ندرس في هذا المجال الوصف كعنصر مقابل وتابع للسرد، والتعرف على وظائفه في النص الروائي، ولكن سنستعين به ك تقنية من التقنيات التي يقحم به المؤلف نفسه ليبرز موقفه من الأحداث. لقد تميزت المقاطع الوصفية بغلبة التفكير والتأمل وقلة الحركة، إذ عمد السارد إلى التعبير عن حالة الشخصيات والفضاء الذي تعيش فيه. ف<<المانكو(مثلا) لم يطلب كثيرا وما زال عساسا في القسمة يفتحها ويغلقها، وينظم الكراسي. يقرها للإجتماع. ذراعه اليمنى المقطوعة لا تمنعه من نشاط مماثل، يصنع التاي بالنعناع، كذلك سيجارته يخرجهما ويشعلها دون حرج>> ص 149. <<في قسمة المجاهدين لا يتكلم إذا حضر الإجتماع... يصمت عاهد نفسه على ذلك>> ص 150. <<وها أنت اليوم ما بلغت حاجة التقاعد هو الأخير ما حصلت عليه>> فالسارد توصل من خلال هذه المقاطع الوصفية إلى فضح المجاهدين المزيفين الذين لم يطلقوا رصاصا إبان الثورة، ولكنهم تحصلوا بعد الإستقلال على البطاقة السحرية التي مكنتهم من اعتلاء مناصب حزبية وحكومية في أعلى هرم السلطة. بينما بقي المجاهدون الحقيقيون في حالة يرثى لها، لأن مبادئهم منعتهم من طلب المقابل المادي.

ويصف الكاتب فضاء الحبس وحالة "هارون" به فيقول: <<ياه كما كنت تتوقع، ها هي غرفة الحبس، سمها غرفة جدران أربعة. الأرض فراش، لا غطاء... لا يهم قد تخرج الليلة، وربما غدا، هذه أمور تحدث، الأحباس والسجون خلقت للرجال هكذا كان يقول المانكو>> ص فال المؤلف قد اقحم نفسه من خلال هذا المقطع السردية، ليبرز لنا موقفه من سجن المناضلين الأبرياء، ويستطيع القارئ العادي فك شفرات تلك الملفوظات السردية [إنعدام حرية التعبير - تسخير رجال الدرك لقمع المناضلين وتشويه سمعتهم...].

خلاصة القول لقد تراوح الوصف في النص الروائي بين فضائين، فضاء النفس أو فضاء الداخلي *Espace Interne*، وفضاء الواقع أو فضاء الخارج *Espace Externe* يعكس الفضاء الأول العالم الداخلي

العرقلة والتقسيم. شعاره [حاربوا ذرية النمرود تأكلوا الخبز].

✓ يزيد: مجاهد ومنسق قسمة، إصار في الحزب ولا يؤمن بمبادئه، السلطة بالنسبة إليه وسيلة للثراء، والنفوذ طريقة لتهديد الضعفاء والمنافسين. خبيث وعريذ يجسد المحسوية ويعمل على ترسيخ العروشية، يكره ذرية النمرود وفي مقالتهم منافسه العنيد المعلم.

✓ الحاج الحريري: يدعي أنه شارك في الثورة، يشترك مع عون الله في التكر لكل المبادئ، لا يهتم سوى بمصالحه وإثرائه الشخصي [القهوة-الأرض - المسؤولية الحزبية].

✓ التامدي: مدير تعاونية فلاحية، سرق أموال التعاونية وبلدها في الخمر والتبراح.

✓ المانكو: مجاهد فقد دراعه اليمنى إبان الثورة، كان يؤمن بأن جهاده كان في سبيل الله والوطن. أصبح بعد الإستقلال "عساسا"، عاهد نفسه ألا يتكلم في اجتماع، آخر ما تحصل عليه هو التقاعد.

✓ هارون: ابن شهيد، كانت الثورة قد اندلعت بستين عندما جاء إلى الوجود، تقلد منصب أمين ولائي للشبيبة، دخل إلى السجن بسبب مقال.

✓ المسعودي: مجاهد التحق بالجليل. محظ إرادته، جرح في إحدى المعارك وألقي القبض عليه وأودع السجن، وهناك ضاق مرارة العذاب. تقلد بعد الإستقلال منصب رئيس فوج عمال باحدى المزارع.

✓ أمين: اطار بمصنع الورق، مثقف درس الكثير عن الاشتراكية والرأسمالية، نقابي ومناضل، حلمه الوحيد أن يصبح العمال في يوم من الأيام قوة منظمة. اقمه مدير المصنع بعدم الكفاعة والمردودية وقرر طرده. دخل إلى السجن بحجة المسلس بالأمن وتخريض العمال على الإضراب.

✓ المعلم: مجاهد وكاتب قسمة، مناضل مخلص، قاوم الفساد داخل الحزب، اقم بالإتحاد والفسق.

✓ عوج الفم: مثقف متضلع في السياسة هكنا يصفه مريدوه، يكره الاشتراكية، البلدية بالنسبة إليه بدعة، والانتخابات في نظره شيء شكلي، جراح وعنيف في حديثه، يكره الطلاب والنقائين ويعمل على اجتثاثهم، مهمته نشر وترويج الإشاعات.

✓ أم الشيخ: أمينة ولائية للنساء، طلقت زوجها وطرده وراء الحدود، لها تاريخ مع الحاج عون الله.

✓ عينة: ممرضة، حاول يزيد إرغامها على ممارسة الزنى معه ، ولكنها رفضت وقاومه بشدة وعنف. فألصق بها التهمة وعمل على ترويجها. فصلت من منظمة النساء، وسحبت منها بطاقة الحزب.

✓ زينب: معلمة ومسؤولة في الإتحاد البلدي للنساء، طردها أم الشيخ من المنظمة.

الخلاصة

ونحن هذه الدراسة المتواضعة بمجموعة من الملاحظات العامة، تمكنا من تقديدها أثناء قراءتنا للرواية.

■ استحضر المؤلف في روايته تاريخاً حياً، ولم يتردد في كشف بعض الحقائق المتعلقة بكواليس الانتخابات وفضح بعض الأسماء.

■ جنح إلى استعمال اللغة العامية في بناء خطابه الروائي.

■ حدد الكاتب فضاء روايته في فضائين متقاطعين: فضاء [مقهى تشارك الفم] حيث يصنع الخبر ويروج، وفضاء [دار القسمة] حيث تحاك المؤامرات الانتخابية وتتمى المناورات.

■ وزع الكاتب عالم الشخصيات إلى عالمين متناقضين: عالم يمثلته التلاميذ الذين راهنوا على تجاوز الماضي وأحداث القطيعة مع مخلفات الإستعمار وأذنا به. وعالم آخر يمثلته الرجعيون، وهؤلاء لا مكان للمستقبل في حياتهم.

■ يلاحظ القارئ أن الكاتب قد وظف في روايته مادة شعبية غزيرة [الأمثال - الأغاني - التبرجة] وقد استغل هذه المادة في تعرية المجتمع والكشف عن عيوبه

■ هاجم الكاتب فئة المجاهدين واستثنى منهم المجاهدين الشرفاء والمناضلين المخلصين.

■ لم يكن حضور المرأة قويا في الرواية، وهنا أمر طبيعي لأن الواقع والسياسة المتبعة آنذاك سعيًا إلى تهميشها وإقصائها من كافة المجالات. نلمس هذه الممارسة من خلال نظرة المسؤولين السياسيين والحزبيين للمرأة، على أنها وسيلة لإشباع الرغبة الجنسية، وإذا حدث وأن صمدت وقاومت يكون مصيرها الطرد والعزل بعد ترويح الإشاعات عنها.

1- Dictionnaire De Linguistique. Larousse. Paris. 1973- p414.

2- شريط أحمد شريط سيميائية الشخصية الروائية، مجلة السيميائيات والنص الأدبي، ماي، عتبة، ص220.

3- جان لتغليت، مستويات النص السردي. ترجمة رشيد بن حو، مجلة أفق، اتحاد كتب المغرب، لعدد 9/8 ، الرباط
لمغرب، 1980، ص82.

4- Gerard Genette. Figures 3. Coll :Poetique. Seuil. Paris. 1972.p253.

